الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية الأدب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⴰⴽⵍⵉ ⵎⵓⵃⴻⵏⴷ ⵓⵍⵃⴰⵊ - ⵜⵓⴱⵉⵔⴻⵜ -
Faculté des Lettres et des Langues

تخصص: دراسات أدبية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس

بعنوان:

الرثاء بين بيئة الجاهلية وبلاد الأندلس
"دراسة مقارنة"
"الخنساء وأبو البقاء الرندي"
{نموذجا}

من إعداد الطالبات:

- سهيلة بوناصر
- نعيمة مواش
- هاجر خيثر

تحت إشراف الأستاذ (ة):

- أحلام بالولي

السنة الجامعية :2017/2016

كلمة شكر

الحمد لله كثيرا، وشكرا خالصا هادينا وباعثا فينا صبرا ويقينا

ولأن قيد النعمة الشكر، نقدم إليك العطاء بشكر جوارحنا.

أولا : على نعمة الالتزام بعد منّة الإسلام. وثانيا:

على توفيقنا لانجاز هذا العمل المتواضع الذي هو ثمرة جهدنا

نتقدم بالشكر الخاص إلى الأستاذة المحترمة " بالولي أحلام

" التي أشرفت علينا طيلة مدة الإنجاز ولم تبخل

علينا بنصائحها القيمة، وكانت معنا

خطوة بخطوة

كما نتقدم شكرنا لجميع من قدم لنا يد العون في إنجاز عملنا هذا، وجميع أساتذة قسم اللغة والأدب العربي.

بقول شاعر:

لنا منك علما فعليك لك دينا

ولك منا فضلا

اهداء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"

نهدي عملنا هذا إلى من قال فيهما ربي جلّ في علاه: ﴿وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾

إلى من جرعت الكأس فارغا لتسقينا قطرة حب

إلى من أرضعتنا الحب والحنان

إلى رمز الحب وبلسم الشفاء إلى القلب الناصع....أمهاتنا الحبيبات

إلى من كلت أناملهم ليقدموا لنا لحظة سعادة

إلى من حصدوا الأشواك عن دربنا ليمهدوا لنا طريق العلم....أبهاتنا الأعزاء

إلى من حبهم يجري في عروقنا ويلهج بذكراهم فؤادنا....إخوتنا الأحباء

إلى اللواتي عبقت الحياة بشذاهن....أخواتنا الحبيبات

إلى من تذوقنا معهم أجمل اللحظات

.....صديقاتنا المخلصات

إلى كلّ من وسعتهم ذاكرتنا ولم تسعهم

مذكرتنا

هاجر .نعيمة. سهيلة

المقدمة

الحمد لله معز الدين وناصره، ومذل الباطل وزاهقه، ومحق الحق ورافعه، علام الغيوب وما يلج في القلوب، وصلي وسلم على محمد خير من افتتحت بذكره الدعوات، واستنجحت به الطلبات، كاشف الغمة عن الأمة، الذي أدى الرسالة وبلّغ الأمانة، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

مّما يلفت النظر أن الرثاء من الأغراض الشعرية البارزة في الأدب العربي، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى دار الآخرة، وهو بكاء يتعمق في القدم منذ أن وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن مصير الموت والفناء، كما رثى الشعراء كل شيء زال سواء كان حضارة أو مدن أو مماليك فنجده قد قسم إلى نوعين :

رثاء الأشخاص وذاعت به الخنساء في رثائها لأخويها صخر ومعاوية.

رثاء المدن والمماليك، وهو يعبر عن جانب رائع من وجدان العرب بفقدان مماليكهم أو مدنهم، وقد تغنوا بفقيدهم في كثير من الأشعار، ومن بينهم أبو البقاء الرندي الذي استطاع أن ينقل واقع بلاد الأندلس. حيث شغل فن الرثاء مكانة رفيعة ومرموقة في

العصر الأندلسي حيث استعان به الشعراء في ابراز أوضاع البلاد سواء سياسيا أو اجتماعيا، وهذا يعبر عن حزنهم الشديد لما أصاب مدنهم ومماليكهم.

ومن أهم الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع: محاولتنا للتعرف على حياة كلا الشاعرين الخنساء وأبي البقاء الرندي، بالإضافة إلى معرفة خصائص الرثاء في البيئة الجاهلية عند الخنساء وفي بلاد الأندلس عند أبي البقاء الرندي وقد بحثنا في إمكانية وجود دراسات سابقة حول موضوعنا هذا، فوجدنا مذكرة بعنوان:" الرثاء عند الخنساء وابن الرومي" فكانت موجهة لنا نوعا ما في إنجاز عملنا.

ومن خلال الأسباب التي تطرقنا إليها سابقا، توصلنا إلى طرح الإشكالية التالية:" هل كان لموت صخر وسقوط المدن والمماليك نفس التأثير في نفسية الشاعرين الخنساء وأبي البقاء الرندي ؟ وإن كان كذلك فهل للعاطفة دور فعال في ذلك من خلال شعرهما ؟ أم هناك تدخل لاتجاه فلسفي عقلي ؟ وما هي خصائص الرثاء في قصائد الخنساء وأبي البقاء الرندي؟

وقد اتبعنا في معالجتنا لموضوعنا هذا على خطة تمثلت في :

مقدمة حول الرثاء وفصلين حيث تحدثنا في الفصل الأول عن الرثاء وتجلياته عند الخنساء في العصر الجاهلي، وأبي البقاء الندي في بلاد الأندلس.

أما الفصل الثاني جاء بعنوان: دراسة مقارنة بين مراثي الخنساء ومراثي أبي البقاء الرندي. وفي الأخير وضعنا خاتمة حاولنا أن نستظهر فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها.

وأما المصادر والمراجع المعتمدة في هذه الدراسة فكانت متنوعة بين ما كتبه القدماء والمحدثون، ولكنها لم تكن كافية بصفة عامة، ومن أهم المصادر التي اعتمدنا عليها موضوعنا: "كتاب " الشعر الأندلسي في عصر الموحدين " ، و"ديوان الخنساء"، بالإضافة إلى "كتاب علم البديع بين الإتباع والابتداع في شعر الخنساء".

وقد اعتمدنا في دراسة موضوعنا على المنهج المقارن، الذي يعتمد على المقارنة في دراسة الظاهرة، حيث يبرز أوجه التشابه والاختلاف بين رثاء الخنساء و"أبو البقاء الرندي".

وأما الصعوبات التي اعترضتنا في هذه الدراسة، فكانت بالدرجة الأولى قلة أهم المراجع منها ديوان "أبو البقاء الرندي"، بالإضافة إلى ثراء الموضوع وعدم قدرتنا على الإحاطة بكل جوانبه وكذا ما استصعب علينا عملنا هذا ضيق الوقت.

الفصل الأول

_ مفهوم الرثاء : لغة واصطلاحا.

أ)- لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور:" رثى فلا ن فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته.قال: فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يُرثيه ترثيةً ورثيت الميت رثيا ورثاءً ومرثية ورثيتُه: مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضا إذا بكيته، وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعرا، ورثَت المرأة بَعلَهَا ترثيه ورثيته ترثاه رثَايةً فيهما الأخيرة عن اللحباني وترثت كثرت فقال رؤبة:

بكاء ثكلى فقدت حميما فهي تُرثي بأبا وابنيما.[1]

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، لسان العرب،تع خالد رشيد القاضي، ج4 دار الأبحاث، ط1، 2008، ص132.

ونجد في القاموس المحيط " رثيت الميت رثيا ورثاءً ورثايةً بكسرهما ومرثاه ومرثيةً مخفّفة، ورثوته بكيتُه وعددت محاسنه كرثيته ترثيةً وتَرثيته نظمت فيه شعرا، وحديثا عنه أرثى رثاية ذكرتُه وحفظتُه ورجل أرثى لا يُبرم أمرًا، ورثَى له رحِمَهُ ورقَّ له وامرأة رثَّاءة ورثَّاية نواحةٌ.[1]

نلاحظ من خلال هذين التعريفين اللغويين أن: مادة الرثاء تدور حول معنى الحزن والبكاء والندب والتوجع، وتعداد مزايا الفقيد وذكر مكانته في حياتهم وفي المجتمع وكيفية موته والتحسر عليه باستسلام للقدر وبرضوخ لمشيئة الله ونظام الحياة، فالرثاء معظمه صادقا ينجرف فيه الشاعر وراء قلبه، فيصف ألمه وإحساسه بالعذاب لفقدان من أحبهم، فكان الرثاء وسيلة للتخفيف من معاناتهم وهمومهم.

ب)- اصطلاحا:

1_ أما في المفهوم الاصطلاحي فإن الرثاء يعني التفجع على الميت والتلهف عليه وتعداد مناقبه واستعظام المصيبة فيه.

وقد عرّف على أنه:" بكاء يتعمق في القدم منذ أن وجد الإنسان ووجد أمامه هذا المصير المحزن: مصير الموت والفناء الذي لابد أن يصير إليه فيصبح أثرا بعد عين وكأن لم يكن شيئا مذكورا.[2]

[1] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي،القاموس المحيط ،ج4 ،دار الجيل، بيروت،ص334

[2] عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ط1 ،1990م ص12

2_ الرثاء تعبير عن خلجات قلب حزين تجد فيه لوعة صادقة ومشاعر جياشة بالعواطف، إنه البكاء على كل شيء مفقود وعزيز على الإنسان سواء أكان مكانا أو إنسانا .[1]

يتهرب الإنسان من الموت الذي لابد منه ويتذكره كلما سمع بوفاة أحد وكلما فقد عزيزا، وقليلون جدا من يجدون الصبر والصلابة أمام موت أحد الأقرباء أو الأعزاء على قلوبهم ومهما كانت صفة ذلك الإنسان فإنه يتألم أمام الموت ويفتقد لمن مات ويعدد مزاياه، حتى أن البعض إذا مات عدو لهم تأسفوا عليه ووجدوا بعد فوات الأوان صفة على الأقل حسنة فيه كالأخطل عندما رثى الفرزدق بعد أن دام الهجاء بينهما عشرات السنين.

ومن خلال هذين المفهومين نرى أن الرثاء استعمله الشعراء كغرض للتعبير عن الألم والحزن من فقدان قريب لهم أو فناء شيء عزيز عليهم.

وقد اتفق الرثاء بمعناه اللغوي في المفهوم مع الرثاء بمعناه الاصطلاحي حيث نجد كلاهما يشير إلى معاني الوجع والحزن والألم وكذلك تعداد المحاسن والمناقب.

2/ أنواع الرثاء:

أ _ الندب:

[2] محمد عبيد السبهاني، المكان في الشعر الأندلسي (من الفتح حتى سقوط الخلافة 92هـ _422هـ) ، دار غيداء للنشر، ط1، عمان ، 2013، ص 88.

وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات الشجية، والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية لها، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع.[1]

وقد عرف العرب منذ العصر الجاهلي المآتم حيث يجتمع النساء للصياح والعويل على الميت، وظل ذلك في الإسلام إذ أباحه الرسول عليه الصلاة والسلام محرما ما كان يقترن به من حلق للرؤوس وغيره، وإنما أباحه لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لمصابهم فيه"، ويروي الرواة أنه لما بكت نساء المدينة على قتلى غزوة أحد من ذويهن ،قال الرسول عليه الصلاة والسلام:ولكن حمزة بن عبد المطلب لا يبكيه أحدٌ وكان قد قتل في هذه الغزوة فأصبح سنة في نساء المدينة أن لا يقمن مأثما على مرّ العصور إلا بدّ أن بكاءهن بحمزة عم الرسول عليه الصلاة والسلام.[2]

ونجد في الجاهلية النساء النادبات يلِفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم وقتلاهم، ومع مرور الزمن تجزأت صناعة الندب عن صناعة الشعر فظهر العديد من المحترفين يعولون على المآثم تصنع لهم ومهما شرقنا أو غربنا فنجد هذا الندب والنواح حاضرا وفي الأصل إنما يكون على الأهل والأقارب إلا أنه ظهر كذلك عند بعضهم في بكائهم للدول التي زالت وخرّبت.

[1] شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1119م، ص12.

[2] شوقي ضيف، الرثاء، ص13.

فالندب إذا وسيلة للتعبير عن الآلام والأحزان ومحاولة التخفيف من الأوجاع ، ويمكن أن نقسم الندب إلى قسمين رئيسيين هما: ندب الأقارب والأهل وندب الدول والبلدان أي كلاهما يسبب وجعا وألما سواء كان فقدان إنسان أو مكان.

1/ ندب الأهل و الأقارب:

لعل أقدم صور الندب والنواح هي صورة ندب الأهل والأقارب والنواح عليهم وللمرأة الجاهلية في هذا المجال القسط الأكبر والنصيب الأوفر، إذ كانت تندب أباها وإخوتها ومن أشهر من بكت واستبكت في الجاهلية الخنساء، إذ قتل أخوها معاوية في بعض غاراته فأقامت عليه مأتما ضخما من الندب والنواح وأثار ذلك أخاها صخرا فأراد الثأر له فكان له ما أراد لكنه جرح جرحا عميقا أدى إلى وفاته فعادت إلى نواحها وندبها بشدة أكثر مما صنعت على معاوية وكأن موت صخر أشعل لهيب نار بداخلها ثم قررت الدخول في الإسلام ومع ذلك بقيت تتذكر صخرا دائما وفي هذا تقول:

قذى بعينك أم بالعين عوّار أم ذرفت أن من أهلها الديار

كأن عيني لذكراه إذ خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار

فالعين تبكي على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار

تبكي خنّاس وما تنفك ما عمرت لها عليسه رنين وهي مقتار

بكاء والهة ظلته أليفتها لها حنينان: إصغار وإكبار

ترغى إذا نسيت حتى إذا ذكرت فإنما هي إقبال وإدبار[1]

ومن الواضح أن الأبيات تمتلئ بالمشاعر الصادقة والحقيقية وهي مشاعر أخت عاشت حزنا كبيرا على أخيها ولم تجد وسيلة تعبر بها وتخفف عنها أحسن من هذه الكلمات الرائعة لتخرج آلامها بصوت يملئه الشجن والحزن عن أخ كان أملها في الحياة لكنه بين عشية وضحاها أصبح بين الحجر لا تراه ولا تحدثه فتندبه ندبا حارا والدموع في عينيها بقلب منفطر ومجروح فأي بلسم يداويه؟

2/ ندب الدول والبلدان:

سقطت العديد من الدول العربية زمن بني أمية وكانت تشمل العالم الإسلامي كله وما غربت هذه الدولة في أفق التاريخ وأشرقت الدولة العباسية حتى يتجلى أن الخيط الذي يضم هذا العالم ويربط بينه خط واهن وضعيف.وسرعان ما طمع الولاة في الأطراف وطمحوا إلى الاستقلال ونشأت القوميات في الغرب والشرق فإذا العالم الإسلامي دول لا تكاد تحصى وما يرفع نجم دولة ويبلغ عنان السماء حتى يميل إلى الغروب وما كاد العباسيون يستولون على العرش حتى بدأ التصدع واضحا في بناء الدولة وأخذ العرب لا يطمئنون ولا يهدئون في صقع من أصقاع العالم الإسلامي وأخذت الدول تقوم ثم تسقط متعاقبة ومتتالية وكثير من الدول كانت تشيع بالعبارات وأشعار الشعراء.

[1] ينظر: شوقي ضيف، الرثاء، ص 13، 14.

ومن أهم الدول التي بكاها الباكون دولة بني أمية التي سقطت سنة132هـ فتركت أثرا كبيرا في أنفسهم فهذه الدولة بالنسبة لهم أساس الدول الأخرى وهذا ما يبين أهميتها عندهم ومكانتها في قلوبهم فنجدهم كانوا متعلقين بها حيث قيل فيها:

ليت شعري أفاح رائحة المس ك وما إن أخال بالخيف إنسي

حين غابت بنو أمية عنه والبهاليل من بني عبد شمس

خطباء على المنابر فرسا ن عليها وقالة غير خرس [1]

ومن البلدان التي أكثر الشعراء من رثاءها وندبها حين استولى عليها الإسبان نجد طليطلة ، بلنسية، شاطبة، قرطبة،اشبيلية.

ويقول أبو البقاء الرندي :

اسأل بلنسية ما بال مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شأن

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملان[2]

ومن هنا فإن الشعراء يندبون ويتفجعون لفقد عزيز عليهم فيكون بكاء حارا وحزنا شديدا ويسكبون دموعا غزارا كلها حسرة ووجع ونجد هذا اللون غالبا في رثاء الأهل والأقارب حين يحل بهم الموت وكذلك هناك نوع آخر يتمثل في ندب الدول والبلدان وهذا ما يجعلهم يعبرون عن آلامهم للتخفيف من أحزانهم.

[1] ينظر: شوقي ضيف ، الرثاء، ص 40_42.

[2] شوقي ضيف، الرثاء، ص 49.

ب/ التأبين:

يعد التأبين من أهم أنواع الرثاء إذ يتمثل في إعداد الخصال وإبراز محاسن الشخصية كما أنه تعبير عن حزن الجماعة على الفقيد أكثر منه تعبيرا فرديا عن ذلك فهو نوع من التعاطف الاجتماعي الإنساني الذي يستعمله المؤبن.

أصل التأبين الثناء على الشخص حيا أو ميتا ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط إذ كان من عادة العرب في الجاهلة الوقوف على قبر الميت فيذكروا مناقبه ويعددوا فضائله وشاع ذلك عندهم ودار بينهم وأصبح في سننهم وعادتهم ولو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين . ونحن نجده دائرا على ألسنة الرجال والنساء فهم جميعا لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين بل يضيفون إليه إشادة بالميت كأنه لا يبكونه فقط من أجل رابطة الدم بل يبكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية، يبكون فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار، والحلم والألفة والحزم وركوب الصعاب والسماحة والفصاحة والسيادة وكل ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال .[1] فغرضهم من التأبين أن يصوروا ويجسدوا تجسيدا خالصا مدى الخسارة والمصيبة في من فقدوه، وهذا ما نراه في تأبين الخنساء لأخويها بقلب محترق لتصور فضائلها وتبين مكانتها في قبيلتها .

حيث نجدها تقول:

أرى الدهر أفنى معشري وبني أبي فأمسيت عبرى لا يجف بكائيا

[1] ينظر: شوقي ضيف، الرثاء، ص 54.

أيا صخر هل يغني البكاء أو الأسى على ميت بالقبر أصبح ثاويا

فلا يبعدن الله صخرا وعهده ولا يبعدن الله ربي معاويا

سأبكيهما والله ما حن واله وما أثبت الله الجبال الرواسيا

سقى الله أرضا أصبحت قد حوتهما من المستهلات السّحابا الغواديا[1]

فصخر ومعاوية كانا من أهم الأسباب التي جعلت شعر الخنساء مليء بالحزن والتفجع، فأبنتهما تأبينا اشترك بينها وبين أهل قبيلتها خاصة وأن التأبين لا يقتصر على الفرد وحسب وإنما هو شامل ومشترك بين الجميع ، فاستطاعت الخنساء أن تمزج عواطفها الحزينة بعواطف أهل قبيلتها فراح أهلها يؤبنون أخويها بكل ما تحمله الكلمة (التأبين) من تعاطف مع مصيبتها في أخويها فذكروا خصالهما الحميدة، وفضائلهما على القبيلة وأكدوا شجاعتهما وبسالتهما.ونلاحظ أن معظم نصوص الخنساء التأبينية تعمد إلى إضفاء رغبتها على المرثي وتعمل على أن يكون نموذجا ومثالا يحتذى به حتى صارت صورة أخويها من النوع المتعالي حيث تنشأ تقول:

يا عين جودي بدمع منك مدرار جهد العويل كما الجدول الجاري

وابكي أخاك ولا تنسي شمائله وابكي أخاك شجاعا غير خوار

وابكي أخاك لأيتام وأرملة وابكي أخاك لحق الضيف والجار

وحاولت أن تجعل ألمها الخاص ألما عاما مشتركا أي أن قبلتها يجب أن تكابدها حزنها، وقولها فيما يدل على ذلك:

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء،تح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، ط3 ، بيروت،2006م، ص99

أبني سليم إن لقيتم فقعسا في محبس ضنك إلى وعد

وفوارسا منا هنالك قتلوا في عثرة كانت من الدهر

لاقى ربيعة في الوغى فأصابه طعن بجائفة إلى الصدر

ولقد تدارك رأينا في خالد ما ساء خيلا آخر الدهر[1]

ج / العزاء:

اقتصر العزاء في الصبر على كارثة الموت وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر فتلك سنة الكون نولد ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء، ثم نموت وكأن الناس راحلون وهم لا يفكون عقد رحلهم إلا في أحداثهم وهي غايتهم التي ينهون إليها ولا خلاص منها.

إذن فليقبلوا الحياة كما هي على أنها دار زوال وانتقال وليست دار بقاء واستمرار. فالناس كلهم يموتون ويصابون بفقدان أعز الناس ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول:

لولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ولكن لا أزال أرى عجولا وباكية تنوح ليوم نحسي

أراها والها تبكي أخاها عشية رزئه أو غب أمس

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي[2]

كما نجد العادة في الجاهلية الشاعر يعزي نفسه بموت أهله وأشراف قبيلته.

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء،تح عبد السلام الحوفي، ص 35، 54.

[2] شوقي ضيف الرثاء، ص 86.

فالعزاء هو الدعوة إلى التحلي بالصبر فإن الموت كأس يشرب منه الجميع ولا مجال لرد الأقدار.

وهكذا تنوع الرثاء إلى ثلاثة أنواع: "الندب" وهو أقوى ألوان الرثاء تعبيرا عن الحزن والألم أما "التأبين" هو أقرب إلى المدح منه إلى الحزن والبكاء و"النواح" وهو سرد فضائل الميت وتعداد مناقبه وبالنسبة للعزاء فهو الدعوة للتحلي بالصبر وتملك النفس.[1]

3 / الرثاء عند الخنساء :

1 _ مولدها :

هي تماضر بنت عمر بن الحارث بن الشريد السلمي واحدة من أبرز شاعرات العرب منذ العصر الجاهلي وحتى الساعة.

ولدت تماضر ولم يسجل أحد يوم ميلادها فلم تكن هناك وثائق تسجل مثل هذه الأحداث ولم يكن هناك من يتنبأ لها بالشهرة حتى يهتم باليوم الذي ولدت فيه تماضر[2] عرفت بحرية الرأي وقوة الشخصية يستدل على ذلك من خلال نشأتها في بيت عز وجاه مع والدها وأخويها معاوية وصخر.ومن الخلال القصائد التي كانت تتفاخر

[1] نفسه، ص 87.

[2] الخنساء تماضر ، ديوان الخنساء، شر حمد وطماس، دار المعرفة ، بيروت، 2004، ص5.

بكرمها وجودها وأثبتت قوة شخصيتها برفضها الزواج من دريد بن الصمة أحد فرسان بني جشم حيث تقول معلنة رفضها له :

أتخطبني هبلت على دريد وقد طردت سيد آل بدر

معاذ الله ينكحني حبركي يقال أبوه من جشم بن بكر

ولو أمسيت في جشم هديا لقد لقد أمسيت في دنس وفقر[1]

وقد آثرت الزواج من أحد بني قومها فتزوجت من ابن عمها رواحة بن عبد العزيز السلمي وأنجبت منه ولدا يدعى عبد الله إلا أنها لم تدم طويلا معه لأنه كان يقامر ولا يكترث بماله.ثم تزوجت ابن عمها مرداس بن أبي عامر السلمي وأنجبت منه أربعة أولاد هم: يزيد، معاوية، عمرو، عمرة.[2]

وتعد الخنساء من أهم الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في عصرين: الجاهلية وصدر الإسلام، وتميزت بشخصية فريدة من نوعها فهي من أشراف قبيلتها كما عرفت بحبها الشديد لأخويها صخر ومعاوية، فتميزت عن غيرها في التعبير عن حبها لهما وعن الحزن البليغ اللذان خلفانه فيها.

2/ بيئة الخنساء:

[1] الخنساء تماضر، ديوا الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص 06.

[2] حسني عبد الجليل يوسف، دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، الاسكندرية، 2007، ص 09،11.

تحددت بيئتها بمولدها في البادية الحجازية في عصر الجاهلية قبيل الإسلام، ولعل أهم ما اتسمت به البيئة في توضيح شخصية الخنساء هو تشكل القبيلة من ثلاث طبقات.

_ صلة الدم بين الأبناء والنسب وفقهما تقوم القبيلة.

_ العبيد المجلوبون من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة.

_ الموالي وهم عتقاء القبيلة.

وهذا يدل على أن الخنساء من بنات الأشراف والسادة كان لها منزلة سامية فكانت تختار أزواجها وتتركهم إذا لم يحسنوا معاملتها.[1]

هذه هي البيئة التي نشأت فيها الخنساء تماضر وأثرت في تكوين شخصيتها سواء اجتماعيا أو أدبيا أو فكريا.

هذا ما يبين أن الخنساء عاشت وترعرعت في بيئة بدوية ذات نسب مشرف ، وامتازت قبيلتها بالتضامن والطبقية ، وقد اتسمت شخصية الخنساء بالحنكة والقوة والشجاعة فكانت من أهم سيدات القبيلة.

3/ الطبيعة عند الخنساء:

لقد عمدت الخنساء في بعض مراثيها إلى إشراك عنصر الطبيعة في إبراز صورة الفجيعة والألم والحزن الذي تعيشه محاولة نقل ألمها من إطارها الذاتي الضيق إلى العام لتكمل بذلك تمرير هدفها الذي تحرص على إيصاله للآخرين فنجدها تقول:

[1] ينظر: الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، شر حمدو طماس، المرجع نفسه، ص 07.

فخر الشوامخ من قتله وزلزلت الأرض زلزالها

وزال الكواكب من فقده وجللت الشمس أجلالها[1]

وجعلت الخنساء الطبيعة تقاسمها أحزانها على غياب أخويها فبدت الشمس كاسفة والدنيا مظلمة ونجد السيوف والرماح والخيول باكية كما جاء في قولها:

فيا عين بكي لامرئ طار ذكره له تبك عين الراكضات السوابح

وكل طويل المتن أسمر ذابل وكل عتيق في جياد الصفائح

وكل دلاصٍ كالأضاة مذالة وكل جواد بين العتق قارح[2]

ومن المعلوم أن الطبيعة في هذه المراثي لا تصور على أنها حقيقة قائمة بذاتها وإنما تصور من خلال نفس الشاعرة.

ويتضح لنا أن الخنساء لم تلجأ إلى وصف مظاهر الطبيعة وصفا تقريريا بل نراها تشركها في تجربتها فكأنها وثيقة الصلة بهذه التجربة وهذا دليل على شدة الإحساس بوطأة المعاناة ومرارة فقد الأشياء.

4/ وصف الخنساء صخرا ومعاوية من خلال قصيدة " قمران في النادي ":

قيل للخنساء صفي لنا أخويك صخرا ومعاوية، فقالت: كان صخرا جنة الزمان الأغبر وذعاف الخميس الأحمر، وكان معاوية القائل الفاعل، قيل لها: فأيهما كان أفخر،

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص 33.

[2] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، ص 85.

قالت: فأما صخر فحر الشتاء وأما معاوية فبرد الهواء، قيل لها: فأيهما أفجع وأوجع؟

قالت: أما صخر فجمر الكبد وأمّا معاوية فسقام الجسد وأنشدت:

"أسدان محمرا المخالب نجدة بحران في الزمن الغضوب الأنمر

قمران في النادي رفيعا محتبد في المجد رفيعا سؤدد متخيّر

وتابعت تقول في صخر:

أعيني جودا بالدموع على صخر على البطل المقدام والسيد الغمر

ليبك عليه من سليم جماعة فقد كان بساما ومختصر القدر

كما قالت:

ألا ابكي على صخر ثمالنا إذا الحرب هرت واستمرت مريرها

أقام جناحي ربعها وتراف على صعبها حتى استقام عسيرها

إذا ما اقمطرت للمغار وأيقنت به عن حيال ملقح من يبورها[1]

ومن هنا فإن الخنساء تضع أخويها صخر ومعاوية من أهم الأشخاص في حياتها، إلى درجة أنها كانت تراهما القمران اللذان ينيران هذه الحياة الظالمة، حيث اعتبرتهما بحران احتلا مكانة كبيرة في حياتها وحياة قبيلتها فمهما دار الزمن عليهما إلا أنهما النور الساطع في حياتها، كما أنهما وصفتهما بالأسدان.

5/ خبر قتل معاوية أخي الخنساء:

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص58-57.

قتل معاوية يوم حورة الأول وهو من أيام العرب وقد كان لمعاوية وهاشم بن حرملة أحد بني مرة غطفان كلام في عكاظ.

وبعد أيام تهيأ معاوية ليغزو هاشما فنهاه أخوه صخر فأبى معاوية وخرج غازيا يريد ضم كل من بني مرة وبني فزارة مع فرسان بني سليم وبعد وصولهم لمكان يدعى الحورة في ديار بني مرة حامت عليه طير وظبي فتطير منهما فأمرهم بالعودة إلى الديار، وبلغ ذلك "هاشم بن حرملة" فقال: ما منعه من الإقدام إلا الجبن.

وأعاد الكرة مرة أخرى وحدث نفس الشيء فرفضوا القتال وعادوا أدراجهم فأصابهم العطش فأوردوا ماء ونادوا أهله فخرجت إليهم امرأة سألوها عن قبيلتها فقالت: من بني سهم بن مرة بن غطفان ولما كانوا يسقون أنفسهم الماء انسلت المرأة وأخبرت هاشم بن حرملة أنهم غير بعيدين وأنهم قليلون يترأسهم معاوية فقط ،فلم يشعر السليميون حتى ثار عليهم هاشم وقومه واقتتلوا معهم وق انفرد هاشم ودريد بمعاوية وقاما بطنه طعنتين فأردى معاوية قتيلا.[1]

فأتى صخر بني مرة فلما رأوه قال لهم "هاشم" : هذا صخر فحيوه وقولوا له خيرا وهاشم مريض من الطعنة التي طعنه "معاوية".

فقال "صخر": من قتل أخي؟ فسكتوا فقال: لمن هذه الفرس التي تحتي؟ فسكتوا، فقال "هشام": هلّم يا حسّان إلى من يخبرك، قال: من قتل أخي؟ فقال هاشم": إذا أصبتني

[1] ينظر: الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، ص 12، 13.

أو دريداً فقد أصبت ثارك قال: فهل كفّنتموه؟ قال: نعم في بردين أحدهما بخمس و عشرين بكرة.

قال: فأروني قبره فأروه إياه فلما رأى القبر جزع عنده ثم قال: كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي فوا لله ما بتُّ منذ عقلت إلاّ واتراً أو موتوراً أو طالباً أو مطلوباً حتى قتل معاوية فما ذقت طعم نوم بعده.[1]

ويقال إنّ صخراً قام بغزو بني حرملة فصنع لهم مكيدة أدّت بالإطاحة بهم ،وقام بقتل دريداً خلسة وأصاب بني مرّة ، فثاروا عليه فعاد صخر وطلبته غطفان، ثمّ تدخل بن الخنساء و كان صخر خاله فردّ خيل صخر وطلب من فرسانه العودة للنجاة بحياتهم.

أمّا "هاشم بن حرملة" فقد خرج متفسحاً فلقيه "عمرو بن قيس الجشمي"، فقام بقتله بنصبه كمين بين الأشجار فلقي حتفه على إثر ذلك [2].

لقد سعى صخر إلى الثأر لأخيه معاوية من قاتله فلم يجد نفسه إلّا وهو يجول ويحوم في قبيلة بني مرّة، التي كانت سبباً في وفاة أخيه، فكان غضبه شديداً جداً و مليئاً بالانتقام إلّا أن "هاشم بني حرملة" أورد عليه طريقة موته، وكيف عاش لحظاته الأخيرة، فوعد بالانتقام له مهما كان الثمن ،فكان له ذلك أن قتل دريداً أخو هاشم كما قضى على نصف القبيلة.

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي ،ص 16

[2] ينظر: الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي ، ص 16، 17.

كما نجد صخر يتفاخر بثأره من قبيلة بني مرّة بقتله دريد و بعض الفرسان من القبيلة حيث يقول في ذلك:

ولقد دفعت دريد طعنة نجلاء توغر مثل غطّ المنخر

ولقد قتلتكم ثناء وموحدا وتركت مرّة مثل أمس المدبر[1]

فنجده هنا يتحدث عن الطريقة التي قتل بها دريد، وكذلك يتباهى بقتله البعض من القبيلة، فالفخ الذي نصبه كان رائعاً لأخذه بالثأر منهم ،فلم يترك لهم أي حيلة للنجاة من غضبه لموت أخيه صخر .

وبالإضافة إلى ذلك يقول في قتل بعض فرسان بني مرّة:

قتلت الخالدين به وبشراً وعمراً يوم حورة وبن بشرِ

ومن سمح قتلت رجال صدق ومن بدر فقد وفيت نذري

ومرّة قد صبحناها المنايا فروّيناها الأسنّة غير فخرِ

ومن إفناء ثعلبة بن سعدٍ قتلت وما أبّيته بوترِ

ولكنّا نريد هلاك قوم فنقتلهم ونشريهم بكسرِ **1**

[1] نفسه ، ص16 .

لم يتخلّى صخر عن انتقامه رغم أنّ هاشم أقرّ بقتله هو وأخوه لمعاوية، فتابع إلى أن حضّر مكيدة لدريد وهاشم وقتل دريد و بعض من القبيلة، و اعتبر ذلك ثأراً و هذا ما يقلّل من حزنه و حزن أخته الخنساء التي كانت العامل الأساسي لانتقامه،حيث كانت دائماً تطالبه بالانتقام لأخيها معاوية،فكان لها ذلك أن قتل دُريد بغتةً، وقام بطعنه بين أفراد قبيلته.

6/خبر قتل صخر أخي الخنساء :

توفي صخر في سنة 615م في يوم ذات الأثل*[2]، وكان يومئذ بنو خفاف متساندين و على بني خفاف صخر بن عمرو بن الشريد وعلي بني عوف انس بن عبّاس.فأصيب صخر يومئذ بطعنة طعنه إياها رجل يقال له ربيعة بن ثور.وقد مرّ طبيباً بصخر بعدما طال مرضه فأراه ما به، وقال أنه سيشقّ عنه فيفيق،فبينما هو ذات يوم إذ أقبل عائد يعوده و امرأتهُ سلمى على باب الخباء فقال لها: كيف أصبح صخر الغداة؟ و كيف بات البارحة؟ فقالت: بشّر حال لا حيٌّ فيُرجى و لا ميّتٌ فينعى و لقد لقينا منه الأمرّين.

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص 16، 17.

[2] * ذات الأثل: موضع بين ديار بني أسد وديار بني سليم.

فسمعها صخر فغضب كثيراً و قال لها: لما قلت ذلك؟ ، فأجابت بأنها صادقة فازداد غضبه، ثم عاد مرّة أخرى وسألها عن حاله فقالت: يا حسن الحال وقالت أمّه: لا نزال بخير ما رأينا سواده فينا، فسمعها صخر فأنشأ يقول:

أرى أمّ صخر لا تملّ عيادتي و ملّت سُلَيمى مضجعي و مكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازةً عليك ومن يغترّ بالحَدَثان

وللموت خيرٌ من حياة كأنها محلّةُ يعسوبٍ برأس سنانِ

فلمّا طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة مثل الكبد في جنبه في موضع الطعنة قالوا له:لو قطعتها لرجوت أن تبرأ، فقال: شأنكم فأشفق عليه بعضهم فنهاهم فأبى، وقال: الموت أهون عليَّ ممّا أنا فيه، فاحموا لهُ شفرة ثم قطعوها من نفسه.

و قد قال عندما سمع أخته الخنساء تقول: كيف كان صبره، فقال:

أجارتنا إنّ الخطوبُ تنوب على الناس كلّ المخطئين تصيب

فإن تسأليني هل صبرتُ فإنّني صبور على ريب الزّمان صليبُ

كأني و قد ادنوا إليّ شفارهم من الصّبر دامي الصفحتين ركوبُ[1]

وقد توفي في جبل عسيب حيث نجده يقول:

[1] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص19

أجارتنا أن تسأليني فإنني مقيم لعمري ما أقام عسيبُ

وعسيب جبل بأرض بني سليم إلى جنب المدينة به مات صخر فدفن هناك و قبره معلم قريب من عسيب، فتوفي صخر فيه وفي سنة 615م.

فموت "صخر" كان الفاجعة الأكبر بالنسبة للخنساء، رغم الألم الذي تركه موت معاوية فيها، فراحت تبكيه بطريقة يسودها الحزن و الشجن، وهذا ما دفعها للانتقام من قاتله، فطلبت من أولادها الأربعة أن يأخذوا بثأره، فدفعت بهم إلى الحروب، كما كانت دائماً تذكّر أهل القبيلة بصخر و معاوية وتطالبهم بالانتقام.

7/حكاية الخنساء مع أولادها الأربعة:

قتل معاوية على يد هاشم و دريد ابن حرملة، فحرّصت الخنساء أخاها صخراً على الأخذ بالثأر لأخيه مُعاوية،حيث قالت من حرقتها على فقدانه:

ألا لا أرى في النّاس مثل معاوية إذا طرقت إحدى اللّيالي بداهية

بداهية يصغى الكلاب حَسِيسَها و تخرج من سرِّ النجيّ علانية

فأقسمتُ لا ينفكّ دمعي وعَوْلتي عليك بحزن ما دعا الله داعيَة

فانتقم هذا الأخير من قاتل أخيه،لكنّه أصيب بطعنة أدّت إلى وفاته، فحزنت الخنساء على أخيها صخر حزناً أشدّ من حزنها على معاوية، حتى أصيبت على إثره بفقدان البصر.

ومع ذلك لم تتقبل الخنساء موت أخوها صخر، فراحت تذكره وتبكيه بحرقة، فتقول:

يا عين بكّي على صخر لأشجان وهاجس في ضمير القلب خزّان

إنّي ذكرت ندى صخر فهيجنّي ذكر الحبيب على سُقْمٍ و أحزان[1]

كما أنها حرضت أولادها الأربعة للانتقام من قاتل أخيها "صخر"، فأمرتهم بالجهاد وقد رافقتهم مع جيش عمر بن الخطاب وهي تقول لهم: « يا بنيّ إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلّا هو إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتم أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أنّ الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجلّ:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ سورة آل عمران الآية--200

وأصغى أبناؤها إلى كلامها،فذهبوا إلى القتال و استشهدوا جميعاً في موقعة القادسية*[2]وعندما بلغ الخنساء خبر وفاة أبنائها لم تجزع و لم تبك، لكنها صبرت

[1] ينظر، أحمد طاهر طيفور أبي الفضل، بلاغات البناء، الجزائر، 2007م، ص 270.

[2] * القادسية: هي معركة وقعت في 13 شعبان 15 هـ. 635م بين المسلمين والفرس.

فقالت مقولتها المشهورة « الحمد لله الذّي شرّفني باستشهادهم و أرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته» [1]ولم تحزن عليهم كحزنها على أخيها صخر.

يُعتبر موت معاوية و بالأخص صخر قطرة التي أفاضت الكأس فحزنها على معاوية كان أقل شأناً من حزنها على أخيها صخر الذي ترك فيها ألماً عميقا كداء ليس له دواء، إلّا انتقام له والثأر من قاتليه،فتحريض أبناؤها الأربعة هوّن عليها قليلا من حرقتها على صخر، فكان لها ما أرادت، ولكن بالمقابل كانت حياة أبنائها ثمناً آخراً تدفعه،ومع ذلك بقيت الخنساء صامدة و صابرة، ورأت في موت أبنائها استشهاداً مستحقاً، فصخر و معاوية هما الحياة بالنسبة لها دون غيرهما.

4الرثاء عند أبي البقاء الرندي:

1 حياته:

هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى ابن أبي قاسم ابن علي بن شريف،من أهل رندة وقد ورد اسم الرندي و نسبه منظوماً في بيتين من الشعر عثرنا عليهما في مخطوطة كتابه « الوافي في نظم القوافي ».

ألمم إذا شئت تحظى بصالح وشريف

بصالح بن يزيد ب ن صالح بن شريف

[1] ديوان الخنساء، دار صادر بيروت، بت، ص 5.

وقد اختلفت كنية الرّندي، ففي كتاب الوافي، وكتاب أزهار الرياض يكنّى بأبي الطيّب، وكنّاه صاحب الذّخيرة السنية بأبي محمد، وكنّاه المقري بأبي البقاء، وأغلب الظنّ أنّه أشتهر بكنيتين هما(أبو الطيّب،أ بو البقاء) ولم يتوصّل أحد من المترجمين له إلى معرفة تاريخ ميلاده أو وفاته، كما لم يهتدوا إلى تحديد العصر الذي عاش فيه تحديداً دقيقاً.[1]

يمكن أن نقول أنّ الرندي كان محور اهتمام العديد من الشعراء و المترجمين، حيث أنّ نسبه لم يعرف عند كل من هؤلاء، فاختلفت تسمياتهم بينهم، كما لم يعرف العصر الذي عاش فيه بالضّبط.

2-ثقافته و مؤلفاته:

تدلّ أخبار الرّند على أنّه لم يكن شاعراً فحسب، وإنّما كان يجمع إلى جانب الشّعر معارف أخرى، ويذكر عبد الملك المراكشي أنه كان فقيهاً حافظاً متفنناً في معارف جليلة، نبيل المنازع، متواضعاً، مقتصداً في أحواله.

وقد هيّأته ثقافته الواسعة إلى تصنيف مؤلفات كثيرة، فألف جزءاً على حديث جبريل، و تصنيفاً في الفرائض و أعمالها، وله كتاب كبير سمّاه روضة الأنس و نزهة النّفس و ذكر أنّ له مقامات بديعة في أغراض شتّى، كما ذكر له كتاب الوافي في نظم القوافي

1 ينظر: فوزي عيسى ،الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر،ط1 الإسكندرية،2007م، ص،293،292

وهو الكتاب الوحيد الّذي وصلنا من مؤلّفاته هو ليس في علم العروض و القوافي كما قد يدلّ عليه عنوانه، بل هو لاحق بكتب النّقد و البلاغة جملة.[1]

3_شعره ومذهبه:

كان "الرندي" ملماّ بأغلب الموضوعات، و لكنّه ظهر بصفة خاصة المدح و الغزل و الوصف حتّى، و هذا ما جعل ابن الزبير يصفه بأنه شاعر مجيد وبارع في المدح و الغزل وغيرها.

وقد طرق الرندي باب المدح أكثر من غيره.فكان الشعر وسيلة لكسب الأمراء و الملوك، وقد عاش الرندي الفترة التي قامت فيها مملكة غرناطة، فقاموا بضمّ رندة إلى مملكة بني الأحمر، فقويت علاقته بهذه المملكة من خلال مدحه لها ولملوكها، وهذا ما أكده ابن الخطيب في قوله بأنّ "الرندي" كان كثير التردد إلى غرناطة.

أمّا مذهبه الشعري فيمكن القول إنّه يمثل التيّار البديعي في هذا العصر، فالنّماذج التي بقيت من شعره تشير إلى انجذابه و اهتمامه بضروب الصنعة و التفنن التي غدت سمة من سمات الشعر في أواخر عصر الموحدين فهو تارة يبني قصيدة من قصائده على ضرب من ضروب البديع نحو ما مرّ بنا في أبياته الغزلية، وتارة أخرى يكلف بالإكثار من التشبيهات و كثيرا ما يجري وراء الجناس.[2]

[1] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص295.

[2] ينظر: فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 292، 305 .

لقد عالج "الرندي" عدّة موضوعات، فكان شعره حافلا بالغزل و المدح و الوصف من أجل الوصول إلى غايته و خاصة في وصف الممالك و الأمراء، بالإضافة إلى تمييز بلدته التي عاش و ترعرع فيها وهي بلدة رندة الواقعة في غرناطة، مُعتمداً في ذلك على مذهب بديعي غني بالجناس و التشبيهات التي كانت له سنداً في إبراز شعره، ومن أبرز القصائد التي تجلّى فيها هذا النوع البديعي الأوّل قوله:

ومسحنا الكرى إلى غانيات غانيات بكل سحر حلال

وقوله:

كأنّ مدار قطب بنات نعش ندى و النجوم به ندام

كأنّ بناته الكبار جوار جوار السّهى فيه غلام

أمّا النوع البديعي الثاني أنشأ يقول:

وقد هزّت الأرواح خضر كتائب بألوية بيض على قضيب سمر

كأنّ به للنرجس الغض أعينا ترفرف في أجفانها أدمع القطر

كأنّ شذا الخيري زورة عاشق يرى أنّ جنح اللّيل أكتم للسر[1]

4_ الطبيعة عند أبي البقاء الرندي:

[1] نفسه ، ص 303،305.

كانت الطبيعة باخضرارها، و جمال ألوانها من أبهى الحلل التي اكتستها، وفتنت من رآها واستمتع بمشاهدتها و الغوص في مجالها.فما بالك لو كانت هذه الطّبيعة الغناء و الجنّة المعطاء هي طبيعة الأندلس.

إنّ الطبيعة الأندلسية على حدّ تعبير الأدباء: « أنّها تنعم بجمال ثري و روعة آسرة، و تصطبغ بظلال وارفة، وألوان ساحرة، و تتنفس في جوّ عبق يضاعف من روعته و بهائه ما يتخلل جنياتها من السحر و مظاهر الفتنة التي تبعث الانبهار والدّهشة في النّفوس، فتشد الألباب إليها و ترهف الإحساس بجمالها، و تزيد من الانجذاب و التعلق بها».[1]

فمن يرى مخطط الأندلس و كثرة ما يجري فيها من الأنهار، يصبّ بعضها في البحر المتوسط،يحس بجمال هذه البلاد و جمال مناظرها و أوضاعها الطّبيعية، وقال عنها ابن سعيد في مسرح حديثه عن الطبيعة الأندلسية: ميزان وصف الأندلس أنّها جزيرة قد أقدحت بها البحار فأكثرت فيها الخصب و العمارة من كلّ جهة وممّا اختصت به أنّ نهاية جمالها تشدّ العيون إليها، فكما قال عنها بعض الشعراء:

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدّر بين زبرجد مكنون[2]

[1] محمد مجيد السعيد، الشّعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس، دار الراية ، ط3،ا لأردن،2008 م، ص123.

[1] شوقي ضيف، الرّثاء، ص409.

ويعكس شعر الطّبيعة قوّة ارتباط الأندلسيين ببيئتهم و تعلقهم بمظاهر الجمال في بلادهم، فنجدهم يُفضلونها على سائر البلدان و كان هذا انعكاساً للشّعور الوطني في نفوس الأندلسيين كما أنّها تعبيرا عن نزعة أندلسيّة قويّة تأصّلت فيهم فنجد قولهم:

في أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء

وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحقّ الأنس صهباء

وقد عبّروا عن روعة أنهارهم بصفة خاصّة حيث قالوا:

أنهارها فضّة و المسك تربتها و الخز روضتها و الدر حصباء

بالإضافة إلى ذلك راحوا يتغنّون بالريّاض و الأزهار فعبّروا عن إعجابهم الشّديد بها فوصفوا قائلين:

هل نلتقي في روضة موشية خفاقة الأغصان و الأفياء

وبدت ثغور الياسمين فقبلت عنى عذار الآسة الميساء

وكأنّ غضّ الزّهر في خضر الرّبى زهر النّجوم تلوح بالخضراء[1]

[1] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص127،129.

وبهذا يكون للرّوضة نصيب من وصفهم لبلادهم،فقاموا برسم لوحات مميزة عنها وما تحتويه من أزهار و جداول وطيور وغيرها.

الفصل الثاني

أ/ خصائص الرثاء في الشعر الجاهلي عند الخنساء:

1-الصّورة الفنيّة في شعر الخنساء:

تعتبر الصّورة الشّعرية الإطار الفنّي الذي تتخذه الكلمات والألفاظ في النّصوص الشّعرية، والتي تنقل لنا في الوقت نفسه عدّة تجارب ذاتيّة خاضها الشعراء وهي ذات قيمة تدفع القارئ إلى الاندماج في واقعه من خلال الرّؤية الشّعرية الفنّية للشّاعر.

أمّا الصّورة الفنّية بمفهومها العادي فهي شكل من الأشكال البلاغيّة كالتّشبيه والاستعارة والكناية حيث تهدف إلى إبراز المعاني وتوضيحها وبيانها للمتلقّي.

فكان لابدّ للخنساء من تأكيد معانيها التي عايشت تجربتها الحزينة، وكان سندًا لها في إبراز ألمها، فاستطاعت المعاني التّعبير عمّا يختلج قلبها من حزن وتفجّع. [39]

أمّا في ما يخصّ البديع فإذا تأمّلنا علاقته بتجربة الحزن عند الخنساء، نجد أنّ تجربة الحزن عندها تجربة شعريّة في المقام الأوّل والشّعر الذي نتحدّث عنه هو الشّعر الغنائي، إذًا فهي تجربة غنائيّة والخنساء عندما لجأت إلى عالم الشّعر لتصوغ في إطاره مشاعرها اختارت تقنيات بديعيّة جعلتها منطلقًا لتشكيلها الشّعري، وفنّ الرّثاء عندها فنّ بديعي وينتقل من مستوى سجع المكان والغناء الشّعبي إلى مستوى أكثر رقيًّا

[39] ينظر: منذر ذيب كفافي، الشعر الجاهلي المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص252.

ونضجًا، ومن خلال تجربتها الشّعرية جمعت بين جمال المعنى والمبنى إصابة الشّكل والمحتوى، وبين تلقائيّة التّجربة وهندسة الصّياغة.[40]

فالخنساء قد وعت تقنيات البديع التي تضمّنتها النّصوص الشعريّة السّابقة عليها والمعاصرة لها، وهي حين توسّعت وسائل الأداء والأنماط الشّعرية منحت إبداعها فصلاً تستند إليه وتنطلق منه.[41]

وقد ارتبطت الخنساء بالنّصوص الشّعريّة التي تبنّتها، ومن جانب آخر قدّمت أعمالاً تتميّز بها من حيث القصيدة ومن حيث وسائل الأداء الفنّي التي يبرز فيها المستوى البديعي بصورة واضحة.

كما أودعت الخنساء مراثها كلّ ما وصلت إليه من فنون البديع بصورة لم تسبق إليها وانتقلت من بديع البيت الواحد إلى البديع المتراكب الذي يستغرق مجموعة من الأبيات أو القصيدة بأكملها.

بحيث لم تتكلّف بالبديع لهذا نستطيع أن نقول إنّ البديع عند الخنساء هو بديع الطّبع، فمن المحسّنات البديعيّة التي استخدمتها في شعرها نجد الطّباق والمقابلة، كما تطرّقت إلى فنّ الوصف والتّشبيه.

---

[40] حسني عبد الجليل يوسف، دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، الاسكندرية، 2007، ص109.

[41] نفسه، ص 117.

فمن المحسّنات البديعيّة المعنويّة نجد الطّباق في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾ سورة البقرة 257.

1-الطّباق:

التّكافؤ والجمع بين نقيضين.

وكذلك قال التّبريزي: "الطّباق أن يأتي الشّاعر بالمعنى وضدّه أو ما يقوم مقام الضّدّ".[42]

مثل قولها:

من الحزم في العزاء والجود والنّدى لد ملكه عند اليسارة والعسر[43]

فاستخدامها الكلمات المتضادّة في كثير من قصائدها تدلّ على قدرتها على إيصال المعاني للقارئ فضلاً نجد: الحزم والجود، العزاء والنّدى وكذلك اليسر والعسر، فهذه الكلمات المتضادّة جاءت لتؤكّد المعنى وتقوم بتوضيحه، فالخنساء تحاول دائمًا أن تُؤكِّد على مكانة أخيها صخر وكذلك لتعدّد مناقبه وخصاله بقولها بأنّه حازم ويتميّز بالجود بالإضافة إلى أنّه عسر ويسر إذا تطلّب الأمر، وهذا ما يبيّن تضاد هذه الكلمات فنستطيع من خلالها أن نميّز بين الأشياء أي إذا ذكر حزمه وعسره وعزاءه

[42] حسني عبد الجليل يوسف، دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، ص 109.

[43] حسني عبد الجليل يوسف،علم البديع بين الاتباع والابتداع، دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، ص113 .

لابدّ من كلمات تأتي بالمعنى المراد، وهي الكلمات المضادّة لها الجود والنّدى واليسر وهذا ما ترك أثرًا جميلاً في الأسلوب من ناحية الشكل، وأثر مزدوج من ناحية المعنى من خلال الكشف عن خبايا الكلمة وذلك بتدعيمها بعكسها.

- و في قولها أيضا:

فتيّ السّنّ كهل الحلم لا متسرّع ولا جامد جعدا ليدين جديب [44]

تحاول الخنساء في هذا البيت أن تعبّر عن صفة حميدة وحسنة في أخيها صخر وهي الحلم، فبقولها فتيّ السّنّ تتحدّث عن شباب أخيها، وأنّه كهل الحلم أي كثير الحلم في شبابه وجاءت هاتين الكلمتين المتضادّتين لتُؤَكِّد له على المعنى الذي تريد الخنساء إيصاله للآخر، بأنّه حليم ومسامح، وهذا ما أضفى رونقًا وجمالاً في هذا البيت، فأسلوبها مُفْعَم بالازدواجية المعبّرة عن المعنى المراد وكذلك عن الشّكل المستعمل.

وقولها:

فلم ينج صخرًا ما حذرتُ وغالَهُ مواقع غادٍ للمنون و رائح [45]

في هذا البيت تحاول الخنساء أن تعبّر عن حزنها لما أصاب أخاها فاستعملت كلمة غادٍ التي تدلّ على وجوده معها وعودته لهم، ثمّ استعملت كلمة مضادّة لها وهي رائح

---

[44] الخنساء، الديوان، تح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3 ، 2006، ص 26.

[45] الخنساء، الديوان، ص 33.

التي تدلّ على موته وعدم عودته، أي المعنى المُراد بأنّه يصارع الموت وهذا ما ترك حزنًا شديدًا على نفسيّتها، فراحت تؤكّد على حزنها الشّديد لألم أخيها صخر وتُبَيِّنُه، فاستعمالها لكلمة غادٍ ورائح وضّح ازدواجيّة الكلمتين من حيث إبراز المعنى وجمال الأسلوب.

لقد لعب الطّباق الدّور الأهم في شعر الخنساء، حيث استطاعت من خلاله أن تأتي بمعاني تمكّنها من وصف حالتها الكئيبة، بالإضافة إلى تأكيد المعاني وتوضيحها، فالخنساء أرادت أن تنقل مأساتها بفقدانها لأخيها، مؤكّدة بذلك حزنها وألمها الشّديد لرحيله، فاستعملت التّضاد لتميّز وتبيّن ما أرادت إيصاله، وهذا ما ترك أثرًا مزدوجًا من حيث المعنى المراد بعكسه، وهذا ما خلّف أسلوبًا جميلاً في أشعارها.

2- المقابلة:

أمّا المقابلة عند البلاغيّين فهي أن يُؤْتَى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثمّ بما يقابلها على التّرتيب، والمُراد خلاف التّقابل.

كما قال قدامى بن جعفر: "ومن أنواع المعاني وأجناسها أيضًا صحّة المقابلات وهي أن يضع الشّاعر معاني يريد التّوفيق بين بعضها البعض، أو المخالفة فيأتي الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصّحّة، أو يشترط شروطًا ويعدّد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه و عدّده، وفيما يخالف

بأضداد ذلك"[46]، حيث تقول الخنساء لبناء نموذج الرّجل الكامل لأخيها والتي نجدها تعتمد فيه على المقابلة فتقول:

ومن لجليس مُفحِش لجليسه عليه يجهل جاهدًا يتسرّع

ولو كنت حيًّا كان إطفاء جهله بحلمك رفق وحلمك أوسع

وكنت إذا ما خفت إرادف عُسرة أظلّ لها من خيفة أتقنّع

دعوت لها صخر النّدى فوجدته لها يسرًا يُجلى به العسر أجمع[47]

وهنا صخر يمثّل الحلم واليسر في مواجهة الجهل والعسر، أو هو بذلك يمثّل الإيجاب في مقابل السّلب، والأمن في مواجهة الخوف، وهي أمور مهمّة بالنّسبة لحياة الإنسان، فالخنساء أرادت أن تؤكّد حزنها وألمها من خلال المعنى الذي أرادت أن توضّحه للقارئ، وهذا ما جعل مقابلة الأشياء عندها أسلوبًا جميلاً مليئًا بالمواجهات، فتشكّلت في أشعارها عذوبةٌ ورونقٌ واضحٌ، مع ترك نوع من الوقع الطّيب في الكلمات.

وقد أضافت الخنساء إلى ذلك تصويرًا بيانيًّا بقولها:

- إطفاء جهله بحلمك ⇦ صخر النّدى.

46 حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، ص 112.

47 نفسه، ص 116.

كما جمعت الخنساء بين أنواع من البديع على هذا المنوال:

- جليس ⇦ جليسه بجهل جاهدًا ⇦ تكرار صوتي.
- جهله ⇦ بحلمك ⇦ طباق.
- وحلمك ⇦ أوسع ⇦ إيحال.
- موسر ⇦ العسر ⇦ طباق.[48]

كما قالت إطفاء جهله بحلمك وصخر النّدى وهنا تريد أن تؤكّد المعنى بأنّ صخر بحلمه وعفوه قضى على جهله وهذا ما يبيّن سمته الحسنة وأمّا بقولها صخر النّدى، فوصفته بأرقى الكلام محاولةً التّعبير عن خصاله وأنّ لا أحد يضاهيه في صفاته النّبيلة.

كما نجد المقابلة في قولها:

إنّ الزّمان وما يغنى له عجَبٌ أبقى لنا ذنبًا واستؤصل الراس

أبقى لنا كلّ مجهول وفجّعنا بالحالمين فهم هام وأرماس

إنّ الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد النّاس [49]

فحقّقت المقابلة على هذا النّحو:

[48] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، ص 116.

[49] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص63.

- أبقى ذنبًا ⇦ استؤصل الراس.
- أبقى كلّ مجهول ⇦ فجّعنا الحالمين.
- الجديدين لا يفسدان⇦ يفسد النّاس.

فقد جاءت الخنساء بمعنيين مخالفين مثل قولها أبقى ذنبًا واستؤصل الراس، وكذلك الجديدين لا يفسدان ويفسد النّاس، محاولةً أن تقدّم مُراد خلاف التّقابل فجعلت الزّمن سبب أوجاعها ومصيبتها، بمقابلة الذّنوب التي تركها لها الدّهر وتعود لتعاتبه على أخذ أخيها صخر أي موته وهذا التّقابل بلّغ المعنى وزاد من قوّة الأسلوب وعذوبته وتركه وقعًا طيّبًا خفيفًا في أبياتها.

ومن المحسّنات البديعيّة اللّفظيّة نجد الجناس:

3- الجناس:

"هو اتّفاق اللّفظان في اللّفظ واختلافهما في المعنى".[50]

ومثل ذلك قول الخنساء في وصف أخيها بالحزم والعزم أي أنّه حازم عند اقتضاء الأمر وعازم في كثير من الأشياء:

أخو الحزم في الهيجاء والعزم في التي لوقعتها يبيض سود المسائح [51]

[50] خالد كاظم حميدي الحميداوي، أساليب البديع في نهج البلاغة دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية،ا لكوفة، 2011، ص 27.

فنجد: الحزم ⇦ العزم.

وكذلك تقول وهي تعبّر عن حالتها الحزينة وألمها الكبير وما أصاب عينيها جرّاء البكاء على صخر:

ما بال عينكِ منها دمعها سَربُ أراعها حزنٌ أم عادها طرب

فهنا: سرب ⇦ طرب.

وتقول أيضا وهي في حالة سهر تشكو قلّة نومها لكثرة حرقتها على موت أخيها صخر:

أرقت ونام عن سهري صحابي كأنّ النّار مشعلةٌ ثيابي [52]

فنجد: صحابي ⇦ ثيابي.

فالجناس فنّ بديعيّ ساعد الخنساء في تحسين كلامها للتّعبير عن فاجعتها وألمها، وهذا ما ترك أثرًا خفيفًا في أشعارها وتناغمًا متتابعًا، فمثلاً في كلمة الحزم والعزم نجد الاختلاف في حرف واحد فقط، وقد نجده في حرفين أو أكثر وهذا يدلّ على التّوافق في اللّفظ مع الاختلاف في المعنى.

4- الكناية:

[51] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص 79.

[52] الخنساء تماضر، الديوان، ص 24، 25.

"وهي كلّ لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز يوصف جامع بينهما".[53]

ولها دور فعّال في البناء الشّعري، وبخاصّة إذا وردت حيث ينبغي لها، وهو الأمر الذي نلمسه في شعر الخنساء إذ طفحت على سطحه الكناية، فوردت مرّات كثيرة خادمةً للنّصّ، مؤثّرة في المتلقّي، ومنها قولها:

حمّال ألوية، قطّاع أودية، شهّاد أنجية، للوتر طلاّبا [54]

وهنا نجد أنّ الخنساء استعملت هذه الكلمات لتبيّن عدّة أشياء منها حمّال ألوية أي كناية عن شجاعتة وبسالته، وقطّاع أودية كذلك كناية عن الشّجاعة والقوّة.

كذلك:

طويل النّجاد رفيع العماد ساد عشيرته أمْردَا [55]

فالشّاعرة هنا تحاول أن تبيّن مكانة صخر وهيئته التي تسودها الشّهامة فبقولها طويل النّجاد كناية عن طول القامة، فصخر كان ذو قامة طويلة، ورفيع العماد تدلّ على الشّرف والسّيادة، ساد عشيرته أمردا كناية عن الرّجولة المُبكّرة.

---

[53] ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ج 2، المكتبة العصرية، لبنان، 1999، ص 182.

[54] الخنساء تماضر، الديوان، ص 08.

[55] نفسه، ص 30.

وقالت أيضا:

نحّار راغية مِلجاء طاغية فكّاك عانية للعظم جبّارُ [56]

فالخنساء تقصد بقولها نحّار راغية وللعظم جبّار بأنّ أخاها صخر كان يُحارب الطّغاة والمتجبّرة، فهنا تبرز الكناية في كرمه وجوده.

إنّ هذه الكنايات التي اعتمدتها الخنساء في أشعارها جاءت لتزيد من شاعريّة قصائدها، وتُغْنِي وتُثْرِي معانيها، وتعمّق دلالاتها وتؤكّدها في تجربتها التي مرّت بها، وما خلّفته من حزن وأسى في نفسيّتها وحياتها.

5- التّشبيه:

"وهو بيان أنّ شيئًا أو أشياءً شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة".[57]

ومثل ذلك قولها:

أرقتُ ونام عن سهري صحابي كأنّ النّار مُشعلة ثيابي [58]

فهنا استعملت تشبيهًا عاديًّا حيث نجد أداة التّشبيه وكذلك المشبه والمشبّه به.

وقالت كذلك:

---

[56] الخنساء تماضر، الديوان، ص 49.

[57] علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط5، مصر، 1966، ص 20.

[58] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، د. ت، دار صادر، بيروت، ص 12.

مثل الرُّد بيني لم تنفذ شبيبتُه كأنّه تحت طيّ البُرْدِ أسوارُ

وقالت أيضًا:

ورفقة حارَ حاديهم بمُهلكة كأنّ ظُلمتَها في الطِّخية القارُ [59]

أيضا نجد:

تركتني يا صخرُ في فتية كأنّني بعدك فيهم نقيل [60]

ومن الملاحظ أنّ هذه التّشابيه جاءت عاديّة، يتكوّن أغلبها من مشبّه ومشبّه به وأداة تشبيه، وهي تشابيه حسيّة على نمط الشّعراء الجاهليين.

كما أنّ استعمال الشّاعرة للتّشبيه دليل على أنّ الشّجاعة والمُروءة والكرم أمور طبيعيّة وعاديّة في شخصيّة أخاها صخر، كما أنّ الحزن والحنين أمْسَيَا أمرين طبيعيّين وعاديّين في شخصيّة الخنساء، وقد لعب هذا التّشبيه دورًا هامًا في تجربتها الشّعرية، وذلك على بساطة صورته التي ورد عليها، ولو كان تمثيليًّا أو ضِمنيًّا أو بليغًا لكان أبلغ وأشدّ تأثيرًا، لكن للخنساء أسلوب خاص بها لها الحقّ في استعماله كما تريد.

[59] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، ص50.

[60] الخنساء، تماضر، ديوان الخنساء، ص .115

بالإضافة إلى ذلك شاع في شعرها التّكرار، حيث نال الحظّ الأوفر في قصائدها، فالتّكرار هو أن يأتي المتكلّم بلفظ ثمّ يعيده بعينه، سواءً كان اللّفظ متّفق المعنى أو مختلفًا، أو يأتي بمعنى ثمّ يعيده، وهذا من شرطه اتّفاق المعنى الأوّل والثّاني، فإن كان متّحد الألفاظ والمعنى فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النّفس، وكذلك إذا كان المعنى متّحدًا، وإن كان اللّفظان متّفقين والمعنى مختلف فالفائدة في الإتيان به – الدّلالة على المعنين المختفين– وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

فأوّله: ما يتكرّر لفظه ومعناه متّحد، أمّا ثانيه ما يتكرّر لفظه ومعناه مختلف، وثالثه فهو ما يتكرّر معنى لا لفظًا.

فيقول ابن رشيق عن التّكرار: "للتّكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها فأكثر ما يقع التّكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقلّ".[61]

فالتّكرار ظاهرة أسلوبيّة وُجِدَت في الشّعر الجاهلي، وهذه المحاولة تعتمد من خلالها إلى بيان هذا الجانب ودوره الموسيقي في قصائد الخنساء، ويعد القراءة المتأنّية في شعرها في هذه القصائد يتبيّن لأنّ التّكرار يكون مع ثلاثة أنماط وهي:

- تكرار الحرف يعينها في البيت الشّعري.
- تكرار كلمات معيّنة أو كلمات ذات وزن صرفي واحد.

[61] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص 71

- تكرار صيغ معيّنة أو أشطر شعريّة أو أبيات شعريّة كاملة.[62]

ومثل ذلك قول الخنساء:

وإنّ صخرًا لمولانا وسيّدنا وإنّ صخرًا إذ نشتو لنحّار

فنجدها تكرّر لفظة صخرًا مرّتين وهذا يدلّ على مكانة صخر بالنّسبة لها ولقبيلتها، ولتؤكّد حبّها له.

وكذلك قولها :

ياعينُ مالك لا تبكين تسكابا إذا راب دهر وكان الدّهر ريّابا

فابكي أخاك لأيتام وأرملةٍ وابكي أخاكِ إذا جاورتِ أجنابا

وابكي أخاك لخيل كالقطا عُصُبٍ فقدنَ لمَّا ثوى سيْبًا وأنهابًا

يعدو به سابح نَهْدُ مراكِلِه مجلببُ بسواد اللّيل جلبابا

حتّى يُصَبِّح أقوامًا، يُحاربهم أو يُسلموا دون صف القوم أسلابا [63]

[62] منذر ذيب كفافي، الشعر الجاهلي المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص 272.

[63] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص 72.

فالأبيات مبنيّة على أنماط متنوّعة من التّكرار، فمثلاً تكرار الحروف نجد: حرف الباء وهو الرّوي يتكرّر في كلّ الأبيات بصورة مُتفاوتة، كما نجد تكرارًا للكاف والخاء والجيم.

والتّكرار اللّفظي كما يلي:

- راب – ريابا
- فابكي أخاك – ابكى أخاك
- مجلبب – جلبابا
- يُسْلِمُوا – أسلابَا

وهذا النّمط من التّكرار يمثّل ظاهرة سائدة في كلّ قصائد الخنساء وهي تندرج في إطار فنون البديع المتنوّعة، وهذا ما يؤكّد أنّ التّكرار سِمة واضحة في شعر الخنساء، فهو يتجاوز وظيفته الشّكليّة الخارجيّة وحتّى في إحداثه إيقاع موسيقي، بل هو وسيلة اعتمدتها الخنساء في تجربتها الشّعريّة.

كما قد نجد تكرار الفعل في شعرها حيث تقول:

إن كنتِ عن وجدكِ لم تقصرى أو كنتِ في الأسوة لم تعذري

فنلاحظ: كنتِ – كنتِ

كذلك تكرار النّفي في نهاية البيت كما في قولها:

أعينيّ هلاّ تبكيان على صخر بدمع حثيث لا بكيءٍ ولانَزْرِ [64]

فنرى: لا بكيءٍ – لا نَزْرٍ

بالإضافة إلى ذلك نجد الاستفهام فهو سائد في الشّعر الجاهلي وخاصّة في رثاء الخنساء، فهو يهدف إلى التّعبير عن أهميّة المفقود حيث يتضمّن استبعادًا لأن يكون هناك من يقوم مقامه أو يفعل أفعاله، ويمثّل تكرار الأسلوب إلى جانب وظيفته الإيقاعيّة في الشّكل تفصيلاً لدور المرثِي، وتفسيرًا وتعليلاً لاهتمام الشاعرة به وحزنها عليه.

ومثال ذلك قول الخنساء:

يا صخر مَنْ لِطراد الخيل إذْ وُزِعَت وللمطايا إذ يُشْدَدْن بالكُورِ

وكذلك قولها:

فمن لقرى الأضياف يَعْدَك إنْ هُمُ فِناءك حَلُّو ثُمَّ نادوا فأسمعوا

ومن لِمُهِمّ حَلَّ بالجار قادح وأمْرٍ وهي مِنْ صاحب ليس يُرْقَعُ

ومن لجليس مُفْحِش لجليسه عليه بجهل جاهدًا يتسرّع [65]

[64] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص73، 74.

[65] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص 73.

فنلاحظ أن الاستفهام كان حاضرًا في شعر الخنساء، من خلال التّعبير عن ألم وحزن فقدان الأحبّة والأعزّاء.

يبدو أنّ ما يطرح نفسه بقوّة علينا للبحث هو تحديد أبرز السّمات التي عُرِف بها شعر الخنساء في رثائها، وبالعودة إلى عواطفها الصّادقة يتّضح لنا أنّها دائمًا تبدأ قصائدها بالبكاء، وسرعان ما تُعَدِّد مناقب فقيدها، فشاع في شعرها التّكرار والاستفهام.

كما يمكن لنا أن نقول أنّ إعجاب قومها بأشعارها وأقوالها جعلها تُقْبِل على التّغني بأحزانها وهذا ما جعلها تلجأ إلى ظاهرة التّكرار.[66]

لقد لعبت الصّور الفنّيّة في شعر الخنساء دورًا هامّا في إضفاء جمالٍ فنّيٍّ في بيتها، فتقول الخنساء:

أمن ذكر صخر ماء عينك يسجد بدمع حثيث كالجمال المنظّم

والجمال هنا أنّ حرف الرّاوي مختلف في السّطر الأوّل عن حركته في القافية، وما يلفت الأنظار أنّ صخر دائمًا في المقدّمة الطّلليّة عند الخنساء، أمّا من حيث المحتوى من خلال ذكرها الجمالي للدّموع حيث تصفها وتشبّهها بالجمال المنظّم، أي كعقد من اللّؤلؤ المُنْتَظم وهذا ما يظهر الجمال الفنّي من خلال الدّموع التي تنهمر من العين،

[66] ينظر: قصي الحسين، شعر الجاهلية وشعراؤها، المكتبة الحديثة، ط1، طرابلس، 2006، ص 437، 438.

وهذا ما يكشف عن التّجربة الشّعريّة عند الشّاعرة، فتجربتها فنّيّة أوّلاً، فمواضيعها متوفّرة على عناصر فنّية إلى جانب عناصر موضوعيّة. [67]

2- النّزعة الوجدانيّة والعاطفيّة:

فالخنساء كما سمّاها الشّعراء الجاهليّون بأنّها شاعرة البكاء فهي سريعة التّأثّر، كما أنّها تندفع وراء عاطفتها وأحزانها وهذا ما جعل شعرها متميّزًا عن الآخرين.

وقد نرى أنّ الانفعال قد حال الشّعر إلى تغيير مباشر عن الذّات وعن تداعيات عاطفيّة لاشعوريّة، فهذا الانفعال العاطفي والوجداني لم يجعل شعرها مجرّد أقوال وتداعيات، بل كان الانفعال والعاطفة خاصّين لعمليّة الإبداع الفنّي إلى درجة يحسّ فيها المستمع أو القارئ إلى تحسين العمل الشّعري وتثقيفه.

قد نجد في بعض النّصوص نوعًا من التّأثّر بنصوص أخرى ليست في الرّثاء بل في موضع تشترك مع الرّثاء في معاناته الهموم والأحزان، مثل قول:

ياعيد مالك من شوق وإسراق ومرّ طيف على الأهوال طراق

وقول الخنساء:

يا عين جودي بدمع منك مهراق إذا هدى النّاس أو همّوا بإطراق[68]

[67] ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص117، 118.

[68] حسني عبد الجليل يوسف، علم البديع بين الاتباع والابتداع، ص23.

فالعيد هو ما اعتداه من حزن وأشواق وهو يقابل العين عند الخنساء تلك التي اعتادت الحزن والبكاء.

ونجدها كثيرة البكاء على أخويها، حيث أصبحت حالتها حزينة وكئيبة بسبب موتهما، ولم تعد قادرةً على الرّاحة مثلما كانت عليه، فتغيّرت حالتها وساءت، ففاجعتها كبيرة لا يخفّف من ألمها سوى البكاء، وذكر أخويها بالخصال الحميدة، فراحت تُعَدِّد مزاياهما الإيجابيّة وتُذَكِّر قبيلتهما دائمًا بأخويها، فتقول:

انّي تُذَكِّرُنِي صخرًا إذا سجعت على الغصون هتوف ذات أطواق

وكلّ عَبْرَى تبيت اللّيل ساهرة تبكي بكاء حزين القلب مشتاق

فالخنساء عُرِفَت في العصر الجاهلي بحبّها الشّديد لأخيها صخر بالخصوص فلم يهدأ لها بال بعد موته، وهذا ما دفعها إلى كثرة البكاء عليه من خلال تأبينها وندبها له، فهناك من يقول أنّها بالغت في حزنها على أخيها وهذا ما نلاحظه في العديد من قصائدها، فاستعملت كلمات البكاء والحزن، فتقول:

ياعين جودي بالدّموع الغزار وابكي على أروع حامي الذّمار

من كان يوما باكيًا سيّدا فليبكيه بالعبارات الجرار[69]

[69] الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، ص 51- 74.

وبعودة متأنّية لهذه المراثي التي أبدعتها عبقريّة الشّاعرة الصّادقة يتبيّن لنا أنّها كانت دومًا تستهلّ قصائدها بالبكاء، ثمّ تسارع إلى تعداد مناقب الفقيد وقول فؤاد أفرام البستاني يُثْبِت ذلك:

"إنّ شعر الخنساء هو أصدق ما وصل إلينا من الشّعر العربي في نوعه، وأخلصه عاطفة في التّعبير عن الحزن العميق الدّافع بصاحبه إلى طلب الثّأر حينًا وإلى اليأس المُفْجِع أحيانًا".[70]

كما أنّ شعر الخنساء في فترة موت شقيقها صخر غلب عليه طابع النّواح، وبدت فيه الشّاعرة كئيبة وحزينة لما أصابها، وهذا ما يدلّ على عاطفتها الحزينة ويُغَيِّب العاطفة الواقعيّة لديها.

ب/ خصائص الرّثاء في الشّعر الجاهلي عند أبي البقاء الرّندي:

1- الصّورة الفنّية في شعر أبي البقاء الرّندي:

كذلك نجد الرّندي تطرّق إلى الصّورة الفنّية في شعره، فكانت طابعًا مهمًّا لما احتواه، فشبَّع قصائده بها فجذب بذلك القارئ، واستطاع أن يعبِّر عن تجربته بأسلوب شعريّ

[70] قصي الحسين، الشعر الجاهلي وشعراؤه ،منشورات المكتبة الحديثة، طرابلس، ص634، 635.

جميل، فنجد في أشعاره مثلا: المحسّنات البديعية، وكذلك استعمل التّشبيه والمجاز ليترك أثرًا خفيفًا ورونقًا زاد قصائده تأثيرًا وتوسُّعًا بين النّاس.

1 1الطّباق:

_ كما أشرنا إليه سابقًا فهو فنّ بديعي يحتاج إلى ثنائيّة مُتضادّة، فاستعمله الرّندي للتعّبير عن أحواله المدنيّة، ونجده بكثرة وخاصّة في قصيدته النّونية التي أقامها على فكرة انقلاب الزّمن وحدوث النّقصان بعد التّمام، فيقول فيها:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان فلا يُغَرَّ بطيب العيش انسان

هي الأمور كما شاهدتُها دول "من سره زمن ساءته أزمان"

فجائع الدّهر أنواع منوّعة وللزّمن مسرّات وأحزان

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمران

يا من لذلة قوم بعد عزّهم أحال حالهم كفرٌ وطغيان

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

وقد اعتمد الرّندي على الثّنائيات وخاصّة أنّها تمثّل القضيّة المركزيّة في الأبيات، فنلاحظ:

- التّمام ⇦ النّقصان

- سرّه ⇦ ساءه
- مسرّات ⇦ أحزان
- الإسلام ⇦ الكفر
- العزّ ⇦ الذّلّ
- ملوك ⇦ عبيد

فالكلمات الأولى (التّمام، سرّه، مسرّات، الإسلام، العزّ، منازلهم، ملوك) وكلها تمثّل حال الأندلسيين والأندلس قبل سقوطها، وأمّا الكلمات الأخرى (النّقصان، ساءه، أحزان، الكفر، الذّلّ، بلاد الكفر، عبيد) تمثّل حال الأندلس وأصحابها بعد سقوطها وسقوط مدنها.[71]

كما نجد الرّندي استعمل ثنائيّة أخرى تمثّلت في جعل الإسلام والأندلس في جانب وجعل الكفر والدّهر في جانب آخر نقيض، ولذلك حذّر المسلمين من الدّهر حين قال:

يا غافلاً في الدّهر موعظة إن كنت في سنة فالدّهر يقضانُ

لقد طبّق الرّندي هذا التّضاد لأنّه يناسب الرّثاء وليس من أجل الزّينة، فقارن بين ما كان وما هو كائن، وتأمّل الحاضر وقارنه بالماضي.

2-1الجناس:

[71] صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، ط1، عمان، 2007، ص129، 130.

_ لايقصد منه الرّندي الزّينة اللّفظيّة بمقدار ما يقصد الشّاعر توظيفه لخدمة المعاني التي أراد إبرازها، وقد تركّز الجناس عنده في استعراض الأمم والممالك والملوك العظيمة التي أفناها الزّمن، فقد جاء الجناس كأنّه مُحَاوَلة مِن الشّاعر لإبراز ما بلغته تلك الممالك من الزّخرفة والزّينة، فيقول:

وأين ما شاده شدّاد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان

دار الزّمان على درا وقاتله وأمّ كسرى فما أواه إيوان

فالعلاقة بين شاد وشدّاد، وساس وساسان، ودار ودارا، وآوى وإيوان، ليست مجرّد علاقة تجانس صوتي، وإنّما علاقة معنويّة كذلك، فلا أحد يستطيع أن ينكر أنّ شدّادًا شاد، إرم ذات العماد، وأنّ ساسان ساس بلاد الفرس وأنّ الزّمان دار على دارا، وأنّ كسرى كان يأوي إلى إيوانه، وهذا ما عمّق المعنى الذي سعى إليه الشاعر.[72]

[72] صلاح جرار، قراءات في الشعر أندلسي، ص 30.

3-1المجاز المرسل:

وقد تطرّق الرّندي كذلك إلى المجاز المرسل وقام بوضع الكلمة قصدًا في غير معناها الأصلي مع ترك قرينة دالّة على ذلك فنجده عرضها من مشهد كلّي إلى مشهد خاص ومثال ذلك قوله:

يا من لذلة قوم، بعد عزّهم أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عُبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذّلّ ألوان

فهنا مشهد قوم ذلّوا بعد أن كانوا أعزّة وملوكًاّ وأصبحوا الآن عبيدًا في بلاد العبيد، ثمّ نرى في المشهد الثّاني في بيع بعض الأسرى والمساومة عليهم وهم مُقَيَّدون ويبكون.

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر و استهوتك أحزان[73]

كما نجد التّكرار قد نال حصّته في شعر الرّندي وهذا أدّى إلى تعدّد وظائفه، فقد شاع في قصيدته إيقاعًا حزينًا ينسجم مع أجوائها وموضوعها حين يقول:

أين الملوك ذو التّيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وللحوادث سُلوان يسهّلها و ما لما حلّ بالإسلام سلوان

[73] صلاح جرار، قرءات في الشعر الأندلسي، ص 126.

قواعد كنّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان [74]

وفي هذه الأبيات الثلّاثة الشّاعر يضع إيقاع باختياره كلمة من داخل البيت يجعلها تتكرّر في آخره.

وكذلك تكراره لأدوات النّداء والاستفهام فغايته أن يحافظ على يقظة القارئ، ومشاركته في المصيبة من خلال التّأثير في عقله ووعيه ووجدانه، فالرّندي لا يستطيع أن يحتمل بمفرده وقع مأساة الأندلس.

فعناية الرّندي بالصّورة الشّعريّة وجعلها تقنية فنّية فاعلة من خلال التّأثير في المستمع وخاصّة الأندلسيّين وذلك بتحريك مشاعرهم وتعاطفهم مع الأندلس بعد استيلاء العدوّ على مدنهم، وكمحاولة منه لتوعيتهم بحجم مصيبتهم.

4-1التّشبيه:

_ كما قلنا سابقًا هو المشاركة في عدّة أشياء وقد استعمله الرّندي في عدّة قصائد، ومثل ذلك قوله:

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنّما هي ياقوت ومرجان

[74]صلاح جرار، قرءات في الشعر الأندلسي ، ص 131.

جاء التّشبيه في قوله: "كأنما هي ياقوت ومرجان" بعد أن عرض الصّورة الحقيقيّة الواقعيّة للفتاة.

كذلك في قوله:

يارب أم طفل حيل بينهما كما تفرّق أرواح وأبدان

فنجد التّشبيه في قوله: " كما تفرّق أرواح وأبدان" بعد عرض الصّورة الواقعيّة للأمّ التي انتزع طفلها منها، مع أنّ التّشبيه تضمّن معنى يفوق المعنى الوارد في الصّورة الحقيقيّة.

وقوله أيضا:

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنّها في مجال السّبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنّها في ظلام النّقع نيران

وكذلك:

أتى على الكلّ أمر لا مرد له حتّى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا

وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطّيف وسْنانُ

فمن خلال البيتين الأوّلين هو الإعلاء من قدر المشبّه، فالرّندي وجد أنّ هذا يحرص على التّقليل من قدرة الحياة الدّنيا بكلّ ما فيها من ممالك وملوك خدمةً لنظريّته

التي بنى عليها قصيدته، ومع حرصه على المبالغة في وصف ما لحق بالأندلس ومدنها، فاتّكأ على التّشبه لتحقيق هاتين الغايتين.[75]

2- النّزعة الفلسفيّة العقليّة عند أبي البقاء الرّندي:

فقد تجلّت من خلال تطوّر انفعالاته تصاعديًّا، فانتقل الرّندي من اليقين في البيت الأوّل إلى الشّكّ في البيت الأخير، رهنًا بتحوّلات عاطفيّة واضحة، فقد افتتح الشّاعر قصيدته بحكمة تمثّل بداية عقلانيّة متّزنة تساعده وقارئه على استيعاب حجم المأساة التي حلّت بالأندلس، فجاءت أبيات القسم الأوّل التي يشهر فيها نظريّته (نظريّة التّمام والنّقصان) وتوابعها والبراهين عليها خطابًا عقليًّا صرفًا. وقد تجلّى هذا الخطاب العقلي في الجانب الأسلوبي على صورة مجموعة من الأسئلة والأجوبة تثير التّأمّل وتُنْشِط العقل:

أين الملوك ذوو التّيجان من يمن؟ وأين منهم أكاليل وتيجان؟

وأين ما شاده شداد في إرم؟ وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟

وأين ما حازه قارون من ذهب؟ وأين عادٌ وشداد وقحطان؟

فالشّاعر لم يتخلّ عن عقلانيته في تعبيره عن حزنه البالغ على ما آلت إليه المدن الأندلسيّة بل حافظ على تقنية الأسئلة والأجوبة:

[75] صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص 127، 128.

فاسأل بلنسية: ما شأن مُرسية؟ وأين شاطبة أم أين جيّان؟

وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان؟

كذلك استعمل الأسلوب الحواري في تشخيص المأساة وفي عرضه لبعض الحلول، وفي الدّعوة إلى أخذ العبرة والمواعظ، وهذا لا ينفي أنّه تخلّى عن عاطفته ووجدانه في حزنه عن بلاد الأندلس، ولكنّه أكّد على الحكمة والعقل فاتّخذهما وسيلة لإيصال فكرته في أهميّة بلاد الأندلس ومدنها في الحياة.[76]

كما نجده استلهم قصائده التي تحتوي الحكمة من قصائد سابقة في الرّثاء خاصّةً ما تركه فيه واقع سقوط المدن الأندلسيّة وتسليم حصونها شديدًا على أبي البقاء الرّندي وكان حزنه أعظم من أن تُحيط به العبارة، فاستعان بما تختزنه ذاكرته من ثقافة أدبيّة وتاريخيّة واسعة.

ومثال ذلك تحدّث الرّندي عن الدّهر وتقلّباته فتلتقي مع أبيات أخرى تتحدّث عن نفس الموضوع في الألفاظ والمعاني ومنها:

إن قلّص الدّهر ما أضفاه من جدّة فصنعة الدّهر عطاء وحرمانُ

وقوله:

[76] صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص 123-125.

العزمُ في غير وقت العزم معجزة والازدياد بغير العقل نقصان

والمعاني في هذين البيتين متّفقة مع معنى (التّمام والنّقصان) الذي قامت عليه قصيدة الرّندي.[77]

أوجه التّشابه والاختلاف بين مراثي الخنساء ومراثي أبي البقاء الرّندي:

1- أوجه التّشابه:

من خلال تتّبعنا لقصائد الخنساء وأبي البقاء الرّندي توصّلنا إلى وجود أوجه تشابه بينهما من خلال شعرهما، فقد اشتركا في عدّة أشياء منها:

_ كلاهما عاشا حياة وتجارب حزينة فالخنساء كابدت الحزن والأسى إثر موت أخيها صخر، وكذلك الرّندي الذي ذاق مرارة الحزن والبكاء على سقوط بلاد الأندلس وبلدته رندة بالخصوص.

_ كلاهما فقد أشياء عزيزة وغالية، فالخنساء فقدت أخويها، بينما الرّندي فقد بلاده الأندلس.

_ كما نجدهما اتّخذا من الشّعر وسيلة للتّعبير عن فاجعتهما،وفي ذلك تقول الخنساء:

ما لذا الموت لا يزالُ مخيفا كلّ يومٍ ينالُ منّا شريفا

[77] صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص132.

فلو أنّ المنون تعدل فينا فتنال الشّريف والمشروفا

كان في الحقّ أن يعود لنا الموت وأن لا نسومه تسويفا [78]

ويقول أبو البقاء الرّندي معبّرًا عن سقوط الأندلس:

ألا مسعد منجز ذو فطن فيبكي بدمع معيّن هتن

جزيرة أندلس حصرة ألا غالب من حقود الزمن؟ [79]

_ غزارة الصّور الفنّية في شعرهما، للتّأثير في المتلقّي فنجد التّشبيه عندهما كوسيلة للتّعبير عن ألمهما وحزنهما فتقول الخنساء:

كأنّ العداة إذا ما بدا يخافون وردا أبا أشبُلِ [80]

كما نجد أيضا قولها:

حلف النّدى وعقيد المجد، أي فتى كاللّيث في الحرب لا نكس ولا وان[81]

_ كذلك نجدهما قد اشتركا في تعداد مزايا فقيديهما، فالخنساء عدّدت مزايا أخاها صخر من حيث الشّجاعة والشّهامة والقوّة والجود والكرم.

---

[78] الخنساء تماضر، الديوان، ص99.

[79] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص 179.

[80] الخنساء تماضر، الديوان، ص 117.

[81] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي، ص 138.

تقول الخنساء:

سمح الخلائق محمود شمائله عالي البناء إذا ما قصّر الباني

مأوى الأرامل والأيتام إن سغبوا شهّاد أنجية مِطعام ضيفان [82]

أمّا الرّندي فذكر محاسن بلاد الأندلس بذكر خيراتها وتاريخها من خلال قوله:

في رياض تسمّ الزّهر فيها لغام بكت دموع لآل

فاكتسى النّهر لأمة منه لما إن رمى القطر نحره بالنّبال [83]

_ كل من الخنساء والرّندي آمنا بقضاء الله وقدره، من خلال دخول الخنساء في الإسلام بعد موت أخويها وأبنائها: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ الرّحمة". [84]

_ أمّا الرّندي فحاول أن يقاوم ويزرع الأمل في أهل بلاد الأندلس من أجل إعادة بنائها وإصلاحها، بعد سقوطها ودمارها، فيُذَكِّرُهُم بحال الأندلس قبل سقوطها فيقول:

وطفلة مثل حسن الشّمس إذا طلعت كأنّما هي ياقوت ومرجان [85]

---

[82] الخنساء تماضر، الديوان، ص 138.

[83] فزي عيسى، الشعر الأندلسي، ص 302.

[84] الخنساء تماضر، الديوان، ص 05.

[85] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي، ص 190.

_ كلاهما كانا ذا بعد إنساني وديني، فنجد الرّندي كان ذو شعور وطنّي وديني من خلال الإحساس بالحزن على ما أصاب الإسلام وبلاد الأندلس من ضياع ودمار. أمّا الخنساء فتَعَدّد رثاؤها بعد أن رثت أخويها صخر ومعاوية وقد طال ذلك فقامت برثاء بعض أسياد قبيلتها وكذلك رثت زوجها مرداس وابن أخيها صخر، فشعورها إنساني حافل بالعاطفة الحزينة.

_ كما أنّهما تطرّقا إلى عنصر الطّبيعة في شعرهما، حيث نجد الخنساء عادت إلى عناصر خارجيّة كالأشجار والشّمس والقمر والثّمار، في قولها:

أبيض أبلح وجهه كالشّمس في خير البشر [86]

كذلك نجد الرّندي استعمل كلمات دالّة على الطّبيعة، كالنّار والماء وغيرهما، مثل قوله:

بحيث يجري النّهر ذيل مجرّة يرفّ على حافاتها الزّهر كالزّهر[87]

_ كلاهما تطرّقا إلى فنّ الوصف واستعملاه بكثرة في أشعارهما، حيث تقول الخنساء في ذلك:

[86] الخنساء تماضر، الديوان، ص 63.

[87] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي، ص 302.

طويل النّجاد رفيع العماد ليس بوغد ولا زُمَّل [88]

ويقول أبو البقاء الرّندي في وصف ليلة:

وليلة نبهت أجفانها والفجر قد فجر ظهر النّهار

واللّيل كالمهزوم يوم الوغى والشّهب مثل الشّهب عند الفرار [89]

2- أوجه الاختلاف:

كما كان هناك أشياء اشترك فيها الرّندي والخنساء

_ الخنساء رثت أشخاص، بينما الرّندي رثى مدن ومماليك، أي أنّ الأولى كان رثاؤها لأخيها صخر، أمّا الثّاني فكان لبلاد الأندلس، وفي ذلك تقول الخنساء:

يا صخر كنت لنا عيشا نعيش به لو أمهلتك مُلمّات المقادير [90]

كما نجد الرّندي يبكي مدينة حنيفيّة بعد سقوطها ودمارها، فيقول في ذلك:

تبكي الحنيفيّة البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

[88] الخنساء تماضر، الديوان، ص 117.

[89] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي، ص 303.

[90] الخنساء تماضر، الديوان، ص 65.

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت و لها بالكفر عمران [91]

_ كما نجدهما اختلافا في نزعتهما، حيث نجد الخنساء اعتمدت على نزعة عاطفيّة بحتة، أي اعتمادها على شعروها الحزين وإحساسها بالألم على ما فقدته، أمّا الرّندي فاتّبع نزعة عقليّة فلسفيّة واعتمد على الحكمة والعقل لإعادة بناء الأندلس.

_ كما نلاحظ تنوّع في مراثي أبي البقاء الرّندي، من حيث رثائه للعديد من المدن في بلاد الأندلس، مثل رثائه لبلسنيّة واشبيلية ورندة وغيرها، ويصف حال هذه المدن بعد سقوطها، أمّا الخنساء فجعلت رثاءها معمّق لأخويها فقط، أي أنّها أطالت في رثائها لهما وخاصّة صخر، فتقول الخنساء في رثائها لأخويها:

بكت عيني وعاودت السّهودا وبتُّ اللّيل جانحة عميدا

كصخر أو معاوية بن عمرو إذا كانت وجوه القوم سودا [92]

_ استعمل الرّندي قيمًا تاريخيّة عكست واقع الأندلس وحالها سابقًا، بينما الخنساء لم تلجأ إلى التاريخ.

_ شدّة التّأثّر عند الخنساء أقوى من تأثّر الرّندي، حيث جعلت الخنساء من موت أخيها نهاية للحياة وانقطاعًا للأنفاس، بينما الرّندي جعل من تأثّره سلاحًا لإعادة بناء

[91] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي، ص 189.

[92] الخنساء تماضر، الديوان، ص 31.

الأندلس، فالخنساء تفوّقت على أبي البقاء الرّندي في أشعار المراثي تفوّقًا لا نجده في فنّ آخر غير هذا الفنّ، ذلك أنّ المرأة بتكوينها النّفسي والعاطفي والاجتماعي هي أكثر استعدادًا فعاطفتها أسرع انبعاثًا وأعمق شعورًا، وقدرتها على البكاء وبعث مكامين الشّجيّ واللّوعة لا تدانيها قدرة الرّجال.

على عكس أبي البقاء الرّندي فقد كان فكره دقيق وموضوعي فهو لا يخرج عن ثقافته الفلسفيّة وما يمتاز به من فكر عميق، فلهذا جاءت قصائد الرّندي تغلب عليها النّزعة العقليّة.

ومن هنا رأينا أن الرّثاء كان وسيلة للتّعبير عن ألمهما وحزنهما، فجعلا شعرهما الرّثائي أداة للتّخفيف من مأساتهما بإيصاله للمتلقّي لكي يشترك معهما الجميع، فقد اشتركا في الموضوع من حيث الرّثاء وكذلك نقل واقعه ومعاناته ، ولكنّهما اختلفا في أمور أخرى، كمبالغة الخنساء في رثائها لأخويها، وعدم تقبّلها لموتهما، بينما الرّندي تقبّل واقعه وأراد إيجاد حلول لما أصاب بلاده.

الخاتمة

وفي الأخير استخلصنا من خلال دراستنا إلى العديد من النتائج و التي من بينها:

أنّ كلا من الشاعرة المخضرمة "الخنساء" و الشاعر الأندلسي "أبو البقاء الرندي" تأثرا بشكل كبير بفقدان أعز ما يملكان، حيث فقدت الخنساء أعز الناس على قلبها و هما أخويها، في حين جاء بكاء "الرندي" و حزنه على سقوط بلاده الأندلس و دمار مماليكها، مما ترك على قلوبهما أثار محزنة في حياتهما التي عاشاها، فكانت حياتهما بائسة في أكثر جوانبها، ما جعل "الخنساء" تصور أحاسيسها و عواطف صادقة في أعمالها الشعرية، كما نجد أيضا "الرندي" حياته لم تعرف البهجة و لا التأنق في المعاش و هذا ما جعله يعبر عن حزنه و فاجعته في أشعاره و رغم وجود بعض النقاط التي تشابها فيها و هي أنهما عاشا تجربة الحزن و الألم على ما فقداه، إلا أنّ هناك اختلاف كبير بين مراثي "أبو البقاء الرندي" و مراثي "الخنساء".

فهذه الأخيرة تغلّب شعرها على النزعة العاطفية الشديدة من شدة فقدان أخويها صخر و معاوية، فيعود ذلك إلى طبيعة عصر "الخنساء"، فقد كان الشعر في العصر الجاهلي يفيض من القلب و يصدر عاطفة الشاعر، وشعوره، بحيث تتميز هذه المراثي في الغالب على العفوية و البساطة و الفطرة المستمدة من صحيفة الحياة و مشاهدة البيئة.

على عكس "الرندي" فقد كان فكره دقيق و يتميز بنظرته التأملية للحياة، حيث أنه لم يقف على تأثره بما فقد، ويجعله نهاية للحياة، و هذا نابع من ثقافته الفلسفية، و

ما يمتاز به من فكر عميق، فلهذا جاءت قصائد "الرندي" يغلبها النزعة الفلسفية العقلية.

المصادر

- **القرآن الكريم**

1. ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، المكتبة العصرية، لبنان، 1999م.

2. ابن منظور، لسان العرب، دار الأبحاث، ج4، ط1، 2008م.

3. أحمد طاهر طيفور أبي الفضل، بلاغات البناء، الجزائر، 2007م.

4. حسني عبد الجليل يوسف، دراسة نظرية وتطبيقية في شعر الخنساء، الإسكندرية، 2007م.

5. خالد كاظم حميدي الحميداوي، أساليب البديع في نهج البلاغة دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية، الكوفة، 2011م.

6. الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، بت، دار صادر، بيروت.

7. الخنساء تماضر، ديوان الخنساء، تح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 2006م.

8. شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1119م.

9. صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، ط1، عمّان، 2007م.

10. عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي، اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول، ط1، 1990م.

11. فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 2007م.

12. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج4.

13. قصي الحسني، شعر الجاهلية وشعراؤها، المكتبة الحديثة، ط1، طرابلس، 2006م.

14. محمد عبيد السيهاني، المكان في الشعر الأندلسي، دار غيداء للنشر، ط1، عمان، 2013م.

15. محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دار الراية، ط3، الأردن، 2008م.

16. مصطفى أمين، علي الجارم، البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط5، مصر، 1966م.

17. منذر ذيب كفافي، الشعر الجاهلي المختارات الشعرية، عالم الكتب الحديث، الأردن.